الفصل الثامن
علم الحديث

ف١١٨-الحديث والسنة.

ف١١٩-كبار المحدثين الأندلسيين.

ف١٢٠-ابن عبد البر.

ف١٢١-معاجم رجال الحديث.

فـ١١٨- الحديث والسنة

امتدت حدود مملكة الإسلام مع الزمن، ودخلت في رحابه بلاد واسعة افتتحها المسلمون، وعرضت للمسلمين – نتيجة لذلك – مشاكل جديدة نشأت عن تعقد أوضاع الحياة في المجتمع الإسلامي يومًا بعد يوم، ولم يجدوا عنها في القرآن نصًا صريحًا، فكان لزامًا عليهم أن يكملوا هذه الناحية بالبحث فيما صدر عن الرسول من قول أو فعل [أو تقرير] يمكنهم الأخذ به.

وبعد عصر الرسول ضُم إلى الحديث ما ورد عن الصحابة، لفالصحابة كانوا يعاشرون النبي ﷺ ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا، وجاء التابعون بعد فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا[*]، فكان من ذلك كله «الحديث. وهي لفظة معناها «إبلاغ» أو «رواية» وقد أُطلق على مجموعة الأحاديث لفظ «السنّة»، ومعناه الطريق الذي يتبعه المؤمنون مقتفين آثار الرسول وصحابته وتابعيهم.

و«الحديث» الذي ظلّ المسلمون يروونه أجيالاً كثيرة، رجلاً عن رجل، يتكون من قسمين: «الإسناد»: وهو سلسلة الرواة أو الأساس الذي يؤيد صحة صدور الحديث عن الرسول وتناقله في سلسلة متصلة من العُدول، و«المتن» وهو النَّص المروي، و«الإسناد» شيء جديد ظهر فيما بعد، وطبيعي أنّ أعسر جانب في الحديث هو التأكد من سلسلة رواته ومقدار الثقة فيهم وما يتصل بذلك من ظروفهم، وذلك حتى يمكن التحقق من صحة ما ينسب إليهم.

ويُسمى الحديث الذي اكتملت له أسباب الصحة كلها «صحيحًا»، أما الذي

(*) ما بين القوسين زيادة للتوضيح من «فجر الإسلام» لأحمد امين (القاهرة ١٩٤٥). ص٢٠٨.

لا يُجْمِعُ الناس على الثقة ببعض رجال إسناده فيسمى «حسنًا»، أما الذي يُشك في إسناده أو يُنسب إلى أشخاص ذوي مذاهب منحرفة فيسمى «ضعيفًا». وقد كُتبت الأحاديث وجُمعت في مجاميع منذ القرن الثالث الهجري، ورضي أهل السنة عن ستة منها، وهي: صحيح البخاري (توفي سنة ٣٥٩/٩٧٠) وصحيح مسلم (توفي ٢٦١/٨٧٥) ومسانيد أبي داود (توفي سنة ٢٧٤/٨٨٨) والترمذي (توفي سنة ٢٧٨/٨٩٢) وابن ماجه (توفي سنة ٢٧٢/٨٨٦) والنَّسَائي (توفي سنة ٣٠٢/٩١٥).

ف١١٩-كبار المحدثين الأندلسيين

وقد اتجهت همة الناس في الأندلس منذ زمن مبكّر إلى دراسة الحديث، ويطول بنا الأمر لو ذكرنا كل محدثي الأندلس، ولهذا نجتزئ بذكر بعضهم:

وأول من نلم بذكره منهم محمد بن وَضَّاح بن بزيع المتوفّى سنة ٢٨٧/٩٠٠، وهو شيخ قاسم بن أصبغ، وكان مولًى للأمير عبد الرحمن بن معاوية، وعدة الرجال الذين سمع منهم في الأمصار ١٧٥ رجلاً [ما بين بغداديين ومكيِّين وشاميين ومصريين وقرويين] وكان شديد التدقيق فيما يقبل من الأحاديث، [قال ابن الفرضي: «وكان ابن وضاح يقول: ليس هذا من كلام النبي ﷺ في شيء هو ثابت من كلامه»].

ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء (٢٤٤/٨٦١-٣٤٠/٩٥١)، وهو من أهل قرطبة ويعرف بالبَياني، ومن شيوخه الأندلسيِّين أبو عبد الله الخُشَني وبَقِيّ بن مَخْلد (ف١٢٣) ومحمد بن وضَّاح، أما في المشرق فقد أخذ عن أحمد بن يحيى بن يزيد المعروف بثعلب ومحمد بن يزيد المُبَرِّد وابن قتيبة؛ [«وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، ولحق الصغارُ الكبارَ في الأخذ عنه، وكانت الرحلة في الأندلس إليه وفي المشرق إلى سعيد بن الأعرابي، وكانا

متكافيين في السن. وكان قاسم بن أصبغ بصيرًا بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب والشعر، وكان يشاوَر في الأحكام»[*].

وقد ضاعت الكتب التي ألّفها لوحفظ لنا المؤرخون أسماءها، مثل «كتاب الأنساب»، و «كتاب في فضائل بني أمية»، و «كتاب في فضائل قريش»، و «كتاب في السنن وفي أحكام القرآن»، و «كتاب الناسخ والمنسوخ»، و «كتاب في حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ»[*].

ومنهم معاصره محمد بن عبد الملك بن أيمن من أهل قرطبة صاحب «كتاب السنن»[1].

ومن كبار محدثي الأندلس كذلك ابن القوطية المتُوفّى سنة ٣٦٦/٩٧٧ (ف٦٥)، وكان له مذهب في تفسير الحديث يختلف عما أجمع عليه الفقهاء، فاتهموه بأنه يفسرها على هواه، مهتمًا بالمعنى والفكر دون اللفظ[2].

ومنهم ابن الحجّام (يعيش بن سعيد بن محمد بن عبد الله الوراق المعروف بابن الحجّام، يُكنى أبا قاسم وأبا عثمان، تُوفي سنة ٣٩٣/١٠٠٣) وكان يشتغل بالبيع والشراء في قرطبة، وهو تلميذ قاسم بن أصبغ وابن الأحمر، وقد ألّف مسند حديث ابن الأحمر بأمر الحكم المستنصر[3]. ومنهم ابن فطيس (أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، تُوفي سنة ٤٠١/١٠١١). قال في حقه ابن بشكوال في الصلة: «وكان من جهابذة المحدّثين وكبار العلماء المسْنِدين، حافظًا للحديث وعلله، منسوبًا إلى فهمه وإتقانه، عارفًا بأسماء رجاله ونقَلَتِه، بصير المعدلين منهم

(*) ابن الفرضي: علماء، رقم ١٠٦٨.

(*) انظر: يونس بويجيس، ص٦٠.

والمجرِّحين... وله مشاركةٌ في سائر العلوم وتَقدُّم في معرفة الآثار والسير والأخبار، وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث والحكايات المسندة، جامعًا لها، مجتهدًا في سماعها وروايتها، وكان حسن الخط جيد الضبط، جمع من الكتب في أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس..»(*). وقد صنَّف كثيرًا من الكتب ضاعت كلُّها.

ومنهم ابن الفرضي وقد ذكرناه (ف٨٤)، وأبو عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن غلبون الخولاني المتوفى سنة ١٠٥٦/٤٤٨، وله كتاب «الاستذكار في الروايات وتسمية الشيوخ الرواة لها والإجازات»، [«وكانت له عناية كبيرة بتقييد الحديث وجمعه وروايته ونقله، وكان ثقة فيما رواه ثبتًا فيه، مكثرًا محافظًا على الرواية، وكان فاضلاً ديِّنًا متصاونًا متواضعًا»](*).

ومنهم رزين بن معاوية بن عمار العبدري الأندلسي، المتوفَّى سنة ١١٢٩/٥٢٤ من أهل سرقسطة يكنى أبا الحسن، «جاور بمكة – شرَّفها الله – أعوامًا وحدَّث بها عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي وغيره، وكان رجلاً فاضلاً عالماً بالحديث، وله فيه تواليف حسان، منها «تجريد الصحاح الستة»، و «أخبار مكة والمدينة وفضلهما»، و«كتاب في جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي»، وهو كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالمشرق والمغرب»(*).

ومنهم عبد الحق الإشبيلي صاحب كتاب «الأحكام»، [«مشهور متداول

(*) ابن بشكوال: الصلة، ٦٧٩.

(*) ابن الفرضي: علماء، رقم١٧٤٧.

(*) ابن حزم (برواية المقري): النفح، جـ٢، ص١٢٢.

القراءة، وهي أحكام كبرى وأحكام صغرى، قيل: ووسطى»[*].

ف١٢٠-ابن عبد البر

كان أبو عمر بن عبد البر (يوسف بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ٣٦٨/٩٧٨-٤٦٣/١٠٧٠) «إمام عصره وواحد دهره»، كما يقول ابن بشكوال. وهو من أهل قرطبة، «جلا عن وطنه ومنشئه قرطبة، فكان في الغرب مدة ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن منه دانية وبلنسية وشاطبة، وبها تُوفي»[*]. وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر: وقد أخذ عن أكبر من كان في قرطبة أو وفد عليها من العلماء.

وكان في أول أمره ظاهريًا من مدرسة ابن حزم، ثم تمذهب بالمالكية وإن كان ظاهر الميل إلى الشافعية، وقد ولاه المظفر بن الأفطس قضاء الأشبونة وشنترين.

وله مؤلفات جليلة مثل «الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، ولا زال مخطوطًا، وهو معجم لأسماء الصحابة والتابعين، وله كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، رتَّبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله، وهو سبعون جزءًا.

قال أبو محمد بن حزم: «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، فكيف أحسن منه؟!»، (وقد عمل محمد بن عبد الله القرطبي المتوفى سنة ٦٢٩/١٢٣٢ موجزًا له). ثم صنع «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار، لما تضمنه موطأ

(*) ابن حزم (برواية المقري): النفح، جـ٢، ص١٢٢.

(*) ابن بشكوال: صلة، ٦١٨.

مالك من معاني الرأي والآثار» شرح فيه الموطأ على وجهه ونسَّق أبوابه»، وكتاب «الانتقاء في أخبار الثلاثة الفقهاء»: مالك وأبي حنيفة والشافعي؛ وله كتب أخرى كثيرة في الشريعة والأنساب[٤].

وقد وضع ابن فتحون الأوريولي (أبو بكر محمد بن خلف بن سليمان المتوفى سنة ٥١٩/١١٢٥ أو ٥٢٠/١١٢٦) «ذيلاً» أو «استلحاقًا» على «كتاب الاستيعاب» في سفرين، وهو كتاب حسن حفيل. وله كتاب آخر أيضًا في أوهام كتاب الصحابة المذكور، وأصلح أيضًا أوهام «المعجم» لابن قانع في جزء[*].

أما القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦/١٠٨٥-٥٤٤/١١٤٩)، فقد «استقر أجداده في القديم بحَمَّةِ بَسْطة، ثم انتقلوا منها إلى مدينة فاس ثم إلى سبتة وبها وُلد هو: وسمع من مشيختها، وتفقَّه ببعضهم، ورحل إلى الأندلس فأخذ بقرطبة عن أبي الحسين بن سراج، وأبي عبد الله بن حمدين، وأبي القاسم بن النحاس، وابن رشد، وابن عتَّاب، وابن بحر...»[*]. وقد ألَّف كتبًا كثيرة منها «كتاب الإلماع في أصول علم الحديث ومبادئه»، وله كذلك «ترتيب المدارك لمعرفة أصحاب مالك»، وهو أوسع مؤلَّف في طبقات المالكية (ف٨٨)[٥].

وقد ألَّف الرُشَّاطي (أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي، ٤٦٧/ ١٠٧٥-٥٤١/١١٤٧) كتاب «الإعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني من الأوهام». والرشاطي من أهل المرية أو أوريولة، وقد أدرك شهرة عظيمة بكتابه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، «أخذ النَّاس عنه

(*) ابن بشكوال: صلة، ١١٥٥.

(*) ابن الأبار: المعجم، ٢٧٩.

وأحسن فيه وجمع وما قصَّر، وهو على أسلوب كتاب أبي سعيد السمعاني الحافظ الذي سمَّاه بالأنساب»(*).

وممن اشتهر بالتحقق بعلوم الحديث ابن قُرْقُول (أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم، ٥٠٤/١١١١-٥٦٨/١١٧٣)، وهو من المرية أيضًا، وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهيلي (٥٠٧/١١١٤-٥٨٠/١١٨٥، ويكنَّى أيضًا أبا القاسم وأبا الحسن)، وكان عالمًا بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب، حافظًا للسير والأخبار والأنساب، إمامًا في الحفظ والذكر والإدراك، مقدمًا في الفهم والفطنة والذكاء، له حظٌّ وافرٌ من قرض الشعر والتصرف في فنون من العلم، يغلب عليه علم العربية والغريب، وأشهر كتبه «الروض الأنف في شرح السيرة لابن إسحاق»، وهو أجل تواليفه، دل به على سعة حفظه ومتانة علمه... استخرجه مما نيف على مائة وعشرين ديوانًا أو نحوها، وكتاب «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام»، وكتاب «شرح آية الوصية»، وله «شرح في الجُمَل» أظنه لم يتمه(*).

ومنهم أبو العباس (ويقال أبو جعفر) أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد ويعرف بابن الإقليشي (المتوفى ٤٩/١١٥٥) من أهل دانية، صاحب «كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم»، عارض به «شهاب القضاعي، «وكان عالمًا عاملاً متصوفًا شاعرًا مجودًا، مع التقدم في الصلاح بالزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها والإقبال على العلم والعبادة(*)، وقد جمع منتخبات من أحاديث صحيحي مسلم والبخاري.

(*) ابن خلكان: وفيات (طبعة محيي الدين) جـ٢، ص٢٩١-٢٩٢.

(*) ابن الأبار: التكملة، ١٦١٣.

(*) المقري: نفح، جـ١، ٨٧٢.

ومنهم ابن القرطبي المالقي أبو محمد عبد الله بن الحسن بن يحيى الأنصاري، (٥٥٦ أو ٥٥٨/ ١١٦٠ أو ١١٦٢-١٢١٤/٦١١) صاحب «التلخيص على أسانيد الموطأ من رواية يحيى بن يحيى»، ولم يكن أحد يدانيه في حفظ التواريخ.

ومنهم عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله البلنسي (٥٤٩/ ١١٥٥- ١٢١٥/٦١٢)، «وكان إمامًا في صناعة الحديث مقيدًا ضابطًا بصيرًا بها معروفًا بالإتقان لها، حسن الخط حافظًا لأسماء الرجال واقفًا على المعدلين والمجرحين، يجمع إلى الاحتفال بالرواية حسن الاستقلال في الرويَّة، وألَّف كتابًا في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي، نزع فيه منزع أبي نصر الكلاباذي، لم يكمله. وامتُحن بالتجول، فذهبت أصوله وضاعت كتبه في بعض أسفاره، ولو فرغ للتأليف والتصنيف لعظم الانتفاع بمعلوماته بعده. ولم يكن في زمانه أكثر مسموعًا منه ومن أخيه أبي سليمان – رحمهما الله – وفهرسته الحافلة شاهدة بذلك. وكَانَ له على أخيه الشفوف الواضح في علوم العربية والتفنن في غير ذلك، والتميز بإنشاء الخُطب، وتحبير الرسائل والمشاركة في قرض الشعر»(*).

ومنهم أبو الربيع سالم بن سليمان بن موسى الحميري الكلاعي البلنسي (٥٦٤/ ١١٦٩-١٢٣٦/٦٣٣) من أهل بلنسية، سمع من أبي القاسم بن حبيش وأبي بكر بن الجَدّ وابن زَرْقون وأبي الوليد بن رُشْد وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي وغيرهم .

ومنهم ابن القطَّان أبو الحسن علي بنْ محمد بن يحيى الكمامي الكتَّاني المعافري (المتوفى سنة ٦٢٨/ ١٢٣٠) من أهل فاس، وأصله من قرطبة. «وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية

(*) ابن الأبار: التكملة، رقم ١٤٣٥.

ورأس طلبة العلم بمراكش»(*).

ومنهم ابن خَلَفُون الأزدي الأوْنَبي المتوفى سنة ١٢٣٨/٦٣٥؛ وابن سيد الناس (أبو الفتح محمد بن أبي بكر الملقب بفتح الدين وأصل أهله من إشبيلية، وولد في القاهرة سنة ٦٦١ أو ١٢٧٢/٦٧١ أو ١٢٨٢)، صاحب كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، وألّف كذلك «كتاب منح المدح» جمع فيه المدائح التي مدح بها الأصحاب والتابعون الرسول؛ وعمر بن نور الدين (أبو الحسن الأندلسي على بن أحمد بن محمد بن سراج الدين الأنصاري الأندلسي، ١٣٢٣/٧٢٣-١٤٠١/٨٠٣) الذي جلس للإقراء والتدريس في دمشق والقاهرة، ومن مؤلفاته «أسماء رجال الكتب الستة»، و«طبقات الأولياء».

ف١٢١-معاجم رجال الحديث

وأكثر الأندلسيون من وضع معاجم أعلام المحدثين، ومن أشهر من عني بذلك مُعَارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، صاحب كتاب «الأئمة من المصنفين»، وهو من أهل القرن الثالث الهجري؛ ووهب بن مسرة من أهل وادي الحجارة؛ وأحمد بن حزم المُنْتِجيلي المتوفى سنة ٩٦١/٣٥٠ الذي ألّف معجمًا بأعلام الحديث نهج فيه نهج تاريخ محمد بن موسى العُقَيْلي البغدادي؛ والقاضي محمد بن يحيى بن مفرِّج، ومؤلفاته كثيرة: منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري؛ وابن المكوي، (أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي القرشي): وأبو مروان المعيطي الذي ألّف كتابًا على نحو «كتاب الباهر» الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها.

(*) ابن الأبار: التكملة، رقم ١٩٢٠.

وممن ألّف في هذا الباب القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لُبَابة، صاحب «الكتاب المنتخب»، قال ابن حزم: «وما رأيت لمالكي قطُّ كتابًا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفرع وجوهها، ولمنها] تواليف قاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق، وكلها حسن في معناه. وكان شافعي المذهب نظّارًا جاريًا في ميدان البغداديين»(*).

ومنهم ابن الدبّاغ القرطبي، أبو القاسم خلف بن قاسم المتوفى سنة ١٠٠٢/٣٩٣؛ وأبو علي بن سهل بن محمد بن يونس بن الأسود، الذي يقول في حقه ابن الفرضي: «كان حافظًا للحديث عالمًا بطرقه منسوبًا إلى فهمه، وسمع الناس منه قديمًا. وألّف كُتُبًا حسانًا في الزهد، وخرّج من حديث الأئمة حديث مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج رحمهما الله»(*).

ومنهم أبو علي حسين بن محمد بن أحمد الغساني (١٠٣٥/٤٢٧-١١٠٤/٤٩٨)، (ويعرف بالجياني وليس منها، إنما نزلها أبوه في الفتنة، وأصلهم من الزهراء... وكان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين، وعني بالحديث وكتبه وروايته وضبطه، وكان حسن الخط جيد الضبط، وكان له بصر باللغة والإعراب ومعرفة بالحديث والشعر والأنساب، وجمع من ذلك كله ما لم يجمعه أحد في وقته، ورحل الناس إليه وعولوا في الرواية عليه وجلس كذلك في المسجد الجامع بقرطبة وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها وفقهاؤها وجلتها... وكُتُبُه حجة بالغة وجمع كتابًا في رجال الصحيحين سمّاه «تقييد المهمل وتمييز المشكل»، وهو كتاب حسن مفيد)(*).

(*) ابن حزم (برواية المقري): النفح، جـ٢ص١١٧.

(*) ابن الفرضي:علماء، رقم ٤١٥.

(*) ابن بشكوال: الصلة، رقم ٣٢٦.

ومنهم ابن الدبّاغ الأندي، أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر بن فيرُه «خاتمة المحدِّثين بالأندلس»، «روى عن أبي علي الصدفي كثيرًا ولازمه طويلاً، وأخذ عن جماعة شيوخنا وصحبنا عند بعضهم، وكان من أنبل أصحابنا وأعرفهم بطريقة الحديث وأسماء الرجال وأزمانهم وثقاتهم وضعفائهم وأعمارهم وآثارهم»(*)، وقد ذكر له ابن الأبار في التكملة والمعجم كتابين هما «طبقات المحدثين» و «طبقات أئمة الفقهاء» وأثنى عليهما، وذكر له ابن خير في «الفهرست» كتابًا يسمى «الغوامض والمبهمات».

ومنهم كذلك ابن رشيد السبتي – الذي ذكرناه بين أصحاب الرحلات – وكان من كبار علماء الحديث، وفي مكتبة الإسكوريال مصنفان من تأليفه في هذا الباب: الأول «كتاب السماع وإفادة التصحيح»، والثاني «السنن الأبين والمورد الأمعن»(٦).

(*) ابن بشكوال: الصلة، رقم ١٣٩٥.